موضوعات الأحكام وسواها، توسيعاً لها، أو تضييقاً إياها، أم إلقاء لخصوصياتها، زيادة عليها أو نقيضة فيها.

والأحاديث التأويلية إنما تصدّق على كتاب الله إذا كانت موافقة في خط النص أو الظاهر من الآيات حيث تقبل إلغاء خصوصيات كآية صلاة الخوف تلحيقا لصلاة السفر بها بمعونة مثل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

ذلك وهنا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون ما سواها مما في الكتاب، ليدل على أنها عمود الدين وعماد اليقين، فالذين يقيمون الصلاة حقاً هم المؤمنون حقاً فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

ثم هذه الصيغة السائغة ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ تصوّر لنا بالغ الصورة الصالحة للقبض على الكتاب بكل قوة وجدية وصرامة، خارجة عن كل هوة وعرامة في غير ما تعنّت ولا تزمّت وتنطّع، إنما هو تطلّع على ما فيه بكل إتقان وإيقان، دون تحميل عليه رأياً، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فالممسّكون بغير الكتاب رفضاً، أم فرضاً عليه ما ينافيه، أو تحميلاً عليه ما لا يوافيه، إنهم هم المفسدون مهما غربلوا آراء من روايات وشهرات وإجماعات أم أي دليل يزعم من غير الكتاب.

وفي الحق إن الحوزات العلمية المسماة بالإسلامية هي كلها مندد بها في الطامة الكبرى وهاهنا، إذ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[3]، أو ليس القرآن مهجوراً في حوزاتنا، فلا هو متن لها ولا هامش على متونها، لحد قد يفتي بخلاف نصه العلي أو ظاهره الجلي!.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] - ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾[٢].

فقد كان رفع الطور نتقاً وقلعاً عن الأرض فإطارة في الفضاء على رؤوسهم، فهو «طير طار مرة لم يطر قبلها ولا بعدها»[٣]، وهنا ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ دون «عليهم» إشارة إلى أن وقوعه عليهم لم يكن إلّا بهم، بسبب تمردهم عن شرعة التوراة.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ القلوب والأبدان[٤] فتنكير «قوة» يعرّفنا أنها تحلّق على كلّ قوة، فالمفروض - إذاً - تكريس كافة القوات والإمكانيات لأخذ التوراة، أخذاً علمياً وعقيدياً وعملياً: شخصياً وجماعياً، دون أن يترك في أيّ حقل من هذه الحقول سدى وهملاً.

﴿خُذُواْ﴾ وليس يكفى مطلق أخذه بل ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ فليكن ما فيه من أوامر الله ونواهيه ذكرى لكم تعيشونها على كل حال، وفي كل حلّ وترحال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كل المحاظير المذكورة فيه، ذلك، فأخذ ما في كتاب الله بقوة وذكر ما فيه، هما جناحان للوصول إلى حق التقوى، خروجاً عن كل طغوى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٢١٣ - ٦ عن أبي بصير قال سأل طاوس اليماني الباقر عليه السلام عن طير ذكره الله في القرآن ما هو؟ فقال: طور سيناء أطاره الله عزوجل على بني إسرائيل حين أظلهم بجناح منه فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة وذلك قوله عزوجل: وإذ نتقنا الجبل.

(٤) المصدر ١٣: ٢٢٦ - ٢ عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله الله: خذوا ما آتيناكم بقوة «أقوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيها جميعاً»، وفيه عنه عليه السلام قال: واذكروا ما فيه «واذكروا ما في تركه من العقوبة».

وأهم ما في كتب الله تعالى هو التوحيد الحق وحق التوحيد بدرجاته، فقد يذكرنا الله فيها بما كتب في الفطر والعقول وسائر الآيات في كتابات الآفاق والأنفس، فليست كتب الدعوة الربانية إلّا شروحاً وتفاصيل ربانية على كتاب الله في الفطر وما أشبه من سجلات الآيات، مهما كانت فيها زيادات لتعبديات من طقوس وشكليات العبادات.

لذلك فيما يلي يذكرنا الله تعالى بما سجله في كتاب الفطرة الذرية والذرية الفطرة، حيث هما واحد في الحق مهما اختلفا في العبارة، ولقد فصلنا القول في أحكام الفطرة على ضوء آية الفطرة في الروم، ما يكمل البحث حول آية الذرية.

إذاً فالإنسان يعيش عهوداً ربانية، بفطرته وعقليته وبشرعة الله ككل وببنود خاصة راصة من شرعته، لا يستطيع نكران هذه العهود، ولا سيما عهد الفطرة المندغم فيها من ذي قبل.

ولأن آيتي الفطرة والذرية بينهما تلاحم الوحدة، وقصوى الغاية، فلننظر إليهما نظرة عميقة أنيقة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

فهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة بصيغة الذرية، ولأن الفطرة هي ذرية الروح كما النطفة الجرثومية للجسم.

في درس سابق لهذه الآية شهدنا مشهد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] - وهنا تتابعه قصة الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على الذرية: الفطرة، في مشهد لا يدانيه أو يساميه شيء في روعة وجلالة مشهد الجبل المنتوق وسائر المشهد، فهو ميثاق هو أوثق من كافة المواثيق حيث تتبناه كأصل.

إنها قضية توحيد الفطرة في صورة مشهد التساءل، ولا تساءل بين الإنسان وربه حال ذرّه، إلّا ما أودعه الله فيه من الغيب المكنون، المستكن في: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] التي تصاغ هنا بصيغة الذرية، فهو عرض للواقع الحق من التكوين الفطري للإنسان بصورة التساءل والتقاول كما هي دأب القرآن في تجسيم الحقائق البعيدة عن الإحساس، حيث يصورها بصورة المحسوس قولاً وسواه.

وقد وردت روايات حول الذر وعالمه متهافتة متضادة مع بعض، معارضة مع الآية، وبجنبها أقوال وآراء غريبة قلّما يقرب منها منطوق الآية.

لذلك، ولكي نكون على بصيرة في مغزى الآية، علينا أن ننظر إلى «عالم الذرية» من زاوية الآية نفسها بكل إمعان ودقة: مع العلم المسبق أن «الذر» هي النمل، وليست الذرية! ولا نجد في القرآن كله إلّا «ذرة» و«ذرية» وهما من أصل واحد، مهما اختصت الثانية بقبيل الإنسان، فقد أوغلوا في الخطأ في تفسير آية الذرية لفظياً ومعنوياً.

قد يشهد بعض بالآية أن هناك قبل خلق الإنسان له كيان الذر، وعالمه عالم الذر، لمكان المسائلة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[٣] ولكنما التأنّق في

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٣) قال الشريف المرتضى في أماليه (١: ٢٨) وقد ظن من لا بصيرة له ولا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن الله تعالى استخرج من ظهر آدم عليه السلام جميع ذريته وهم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته، وأشهدهم على أنفسهم! وهذا التأويل - مع أن العقل يبطله ويحيله - مما يشهد =

سائر مضمونها يدلنا إلى أن تلك المقاولة المسائلة ليست هي ظاهرها الواقع، بل هي من مسارح الحقيقة أن لو كانت هنالك مسائلة لكانت كما هيه، وهذه هي طريقة القرآن، الفريدة في تبين الحقائق، تصويراً بصورة المسائلة ليعقلها العالمون، وكما ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(١) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) ﴿وَقَالَ

= ظاهر القرآن بخلافه لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل «من آدم» وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل من ظهره، وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل «ذريته» ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: إنهم كانوا عن ذلك لغافلين، أو يعتذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشأوا على دينهم وسنتهم وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم عليه السلام لصلبه وأنها إنما تناولت من كان له آباء مشركون، وهنا يدل على اختصاصها ببعض ذرية بني آدم فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم - فأما شهادة العقول فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم عليه السلام فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول، مستوفية لشروط التكليف أو لا تكون كذلك فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال وما قرروا به واستشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى، وإن بعد العهد وطال الزمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضاً لتخلل الموت بين الحالين تأثير، لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر لكان تخلل النوم والسكر والجنون والإغماء بين أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأن سائر ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا الباب، وليس لهم أن يقولوا: إذا جاز في العقل الكامل أن ينسى ما كان عليه في حال الطفولة جاز ما ذكرناه، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادّعوه إذا كملت عقولهم من حيث جرى لهم وهم كاملوا العقول، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه، على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الفرض في الآية وذلك أن الله تعالى أخبر بأنه إنما قررهم وأشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك، وسقوط الحجة عنهم فيه، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها، وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف قبح خطابهم وتقريرهم وإشهادهم وصار ذلك عبثاً قبيحاً يتعالى الله عنه...».

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] مع العلم أن الأصنام والأوثان والنبات والحيوان، بين شركاءهم، ليست لتتكلم، وإنما هو قالها الحال.

وإن الكيان الإنساني ليرتعش من أعماقه حين يتحلى ذلك المشهد الرائع الباهر، ويتملّى اختجالاً أمام ربه حين يسأل: ألست بربكم - وإجابة «بلى» سابقة سابغة حيث يرى فطرته الذرية مصبوغة بها، فلماذا أنكرها بعد إلى خلافها؟

ولأنها آية مسائلة الذرية فلنجعلها في مسائلة حول ما هي الذرية ومسائلته؟ سراً وتقسيماً دلالياً، وبضمنها رداً أو قبولاً لما ورد حول الذرية من روايات وآراء.

لماذا ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ دون «الله» أم «رب العالمين»؟ علّه لأن ذلك الأخذ هو في موقف تربوي خاص، والهدف الأسمى والغاية القصوى هي التربية المحمدية ﷺ كأعلى نموذج تربوي بين ملاء العالمين! وليكون نبراساً ينير الدرب على السالكين إلى الله على ضوء التربية المحمدية عليه أفضل صلاة وتحية. فهذا الرسول الألمعي الابطحي هو المحور الأصيل في الحقل التربوي الربوبي، وفي ظلاله العالمون على درجاتهم قبولاً أم دركاتهم رداً، فـ ﴿رَبُّكَ﴾ لمحة إلى ذلك وإن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2] هي ظرف ظريف طريف لكل تربية ربوبية أسماها وأسناها ما اختص به الرسول ﷺ دون معاناة أحد أو مساماته معه، مهما اختلفت المحاولات التربوية للناس وما يختارها الله للمختارين من عباده الصالحين.

ذلك «وإذ» هنا متعلقة بـ «اذكر» وما أشبه، فليذكر محمد ﷺ ذلك

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الميثاق ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ برمتهم، فليس يعني «إذ» إذا زمناً خاصاً مضى، بل هو كل زمن خلقة بني آدم عن بكرتهم، وقد عبر عنها بـ«إذ» كزمن واحد، لوحدة ذلك الأخذ الفطري دونما تخلّف لأيّ منهم فيه.

ولمكان ﴿رَبُّكَ﴾ خطاباً للنبي ﷺ نتلمح أن تفهّم معنى الآية بحاجة إلى نبوة في التفكير، فلنقف وراء ساحة النبوة القدسية بنبوة قدسية حتى نعرف القصد من ذلك الأخذ، وليس باب تفهم أمثال هذه الآية مسدودة على غير من خوطب بها، إلا على من سدّ على نفسه منافذ المعرفة، أمن لم يبلغ بالغ الاستعداد لتفهمها.

وليس هنا قصور دلالي، إنما هو قصور المستدل، غير البالغ مبلغ العلم القرآني، فعلى أهل القرآن، العائشين إياه معرفياً، أن يتدبروا آياته الغامضة، فإنها وامضة مشرقة لمن استشرق منها.

ولقد نجد الآيات التي تحمل لفظة ﴿رَبُّكَ﴾ كلها دقيقة المعنى، رقيقة المغزى، لخاصة الخطاب الموجه إلى أعرف العارفين[1] ولأن القرآن - ككل - بيان للناس، إلا الخاص منه كمفاتيح سور وتأويلات أحكام غير

(١) مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ [البَقَرَة: ٣٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . . .﴾ [المَائدة: ٦٧] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . . .﴾ [الأنعَام: ١١٥] ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعَام: ١٢٦] ﴿. . . خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ . . .﴾ [هُود: ١٠٧] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ . . .﴾ [الأعرَاف: ١٦٧] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يُونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحِجر: ٩٩] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ . . .﴾ [النّحل: ١٢٥] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريَم: ٧١] ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٧] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٤-٥].

مذكورة في القرآن، فمجال تفهم خاصة الخطابات - كهذه - مفسوح لمن تدبر فيها حقه، مهما لا يصل إلى حاقها.

فكتاب التدوين: القرآن، هو ككتاب التكوين، هما للناس كافة بمختلف درجاتهم في الاستعدادات الخلقية، والتي تنبو قضية درجات المساعي قدرها، لكلّ حسب سعيه وقدره.

ذلك، ومن آيات القرآن ما هي لائحة لمن يعرف لغة القرآن، وهي قدر الواجب من معرفة الشرعة، ومنها ما يختص بالمعصومين كتأويلات الآيات، ومنها عوان بين ذلك وهي تختلف ظهوراً وغموضاً حسب مختلف الاستعدادات والقابليات والفاعليات.

فترى ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ حكاية عن زمان سابق لواقع ذلك الأخذ؟ و﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لمّا يخلقوا عن آخرهم حتى يعنى هنا سابق الأخذ!.

إنه أخذ علمي في الصميم في حقل خلق الإنسان، أنه يخلق على طول الخط بهذه الفطرة التوحيدية، أخذاً ربانياً في العلم، يحذوه أخذ في الخلق دونما استثناء.

فـ ﴿إِذْ﴾ هنا حكاية عن العلم المصمّم دون طليقه، فإنه أزلي ليس له زمان، بل هو صميم العلم منذ بدء خلق هذا النوع.

و﴿أَخَذَ﴾ حكاية عن أصيلة خلق الإنسان بحصيلته التوحيدية الفطرية، فهو - إذاً - مأخوذ بحكم الفطرة التي فطره الله عليها و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وترى بعد أن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مأخوذة من ظهر آدم كما تقول رواية؟ وهي تطارد نص الآية: ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ - مِن ظُهُورِهِمْ - ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دون «من آدم - من

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ظهره[١] - ذريته»؟ فما آدم نفسه مأخوذاً من ظهره شيء في هذه المعركة!.

ثم ترى ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هم ولده الأولون دون مفاصلة، وذريتهم هم ولدهم إلى يوم القيامة، فهم - فقط - أشهدوا على أنفسهم في هذه المسائلة دون آبائهم؟ ولم يأت ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في آياتها الست الأخرى لهم[٢]، إلّا للناس أجمعين من ذرية آدم! ولم يكن بنوه الأوّلون مشركين ولا واحد منهم - مهما

(١) في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزوجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢] قال: اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه ورواه مثله في التوحيد عن عمر بن أذينة عنه عليه السلام.
ومثله في غوالي اللئالي وقال عليه السلام أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فاخرج من صلبه كلّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالنور ثم كلمهم وتلا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢].
أقول: هذا التفسير خلاف نص الآية فهو مدسوس على الإمام عليه السلام! وأخرج ما في معناه في الدر المنثور ٣: ١٤٣ عن جماعة عن مسلم بن يسار والجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢] فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون تم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون فقال الرجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففيم العمل فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار أقول: وهو إضافة إلى مخالفة الآية في أخذ الذرية مخالفة للضرورة حيث يصرح بالجبر في عمل أهل الجنة وأهل النار، ومثله روايات أخر رواها في الدر المنثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلها مردودة بمخالفة القرآن.
وفيه ما يوافق الآية في أخذ الذرية من ظهر بني آدم في ١٤٣ - عن جماعة عن هشام بن حكم أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أتبتدء الأعمال أم قد قضي القضاء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم اشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كيفية فقال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار» أقول صدر الحديث فقط يوافق الآية.

(٢) وهذه الست الأخرى هي: ٧: ١٩ - ٢٦ - ٢٧ - ٣١ - ٣٥ و١٧: ٧٠ و٣٦: ٦٠.

قتل قابيل هابيل - حتى تصح الحجة لو لا الإشهاد والمسائلة ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾!.

أم إن ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هنا بعضهم الأعم منهم بمن فيهم من مشركين؟ والتبعيض بحاجة إلى قرينة هي هنا منفية! و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هي خطاب التنديد بعامة المشركين، فيشمل الآباء كما الأبناء طول التاريخ الإنساني منذ البداية حتى النهاية، دون خصوص الأبناء! ولا خصوص الآباء، بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنها حجة - لو صحت - لعامة المشركين.

ثم ومن الآباء موحدون وأبناء منهم مشركون، كما منهم مشركون وأبناء منهم موحدون، أم مشرك من مشرك أو موحد من موحد! وما من أبناء إلّا وهم آباء لآخرين إلّا قليلين هم في عقم عن إيلاد، وليس يختص الشرك بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنّها حجة - لو صحت - لعامة المشركين.

إذاً فـ ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هم كلهم منذ أوّل من ولّده آدم حتى آخر من يولد من ذريته إلى يوم القيامة دونما استثناء.

ثم من هم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المأخوذون ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾؟ أهم ولدهم بعد؟! وقد شملتهم ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾! استغراقاً لذرية آدم على طول الخط! أم هم آباءهم؟ فكذلك الأمر إضافة إلى أن الآباء ليسوا بذرية!، وإلى سائر المحاظير المشار إليها من ذي قبل.

إنهم هم أنفسهم إضافة لهم إلى أنفسهم كما ذريتهم في الفلك المشحون: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[1] وقد فسرتها آية الحاقة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾[2] فذريتهم هم أنفسهم حالكونهم ذرية.

(١) سورة يس، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١١.